



## دلالة السياق وأثره في توجيه الحديث النبوي

الباحث علي بر

طالب باحث بسلك الدكتوراه

مختبر الفكر الإسلامي والترجمة وحوار الحضارات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية ابن مسيك

جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء

المغرب

### مقدمة

من المعلوم أن فهم الأحاديث بالنسبة للمسلم من الأمور الضرورية التي ينبغي أن يعنى بها ويلبها قدرا كبيرا من الاهتمام، لأن مشكلة فهم السنة النبوية ليس في فقر النصوص الحديثية أو المصادر ولا في التدقيق في سير الرجال والأعلام ولا في المنهج والغايات والمصطلحات، بل تعاني من أزمة الاستنباط والفهم الصحيح.

ويتميز الحديث النبوي بمكانة هامة في بناء المنظومة الفكرية والفقهية واستنباط مقاصد الشرع منه، فإن حُسن فهم الحديث ووضعه في مكانه الصحيح ورودا ودلالة شرط أساسي للوصول إلى الصياغة السليمة للمعنى الحديثي بعيدا عن التباين في الفهم والاختلاف بين الفقهاء والمحدثين.

ولهذه الأسباب أثارنا البحث في هذا الموضوع لأهميته، ففهم الحديث يتوقف على وضعه في محيطه وزمانه الذي ورد فيه، بحيث يكون معنا على استنباط المقصد والحكم الفقهي مما يجعل الشريعة مواكبة لأحداث ومستجدات ونوازل الزمان والمكان وهذا ما يطلق عليه بمفهوم السياق.

وللسياق دور هام وحاسم في فهم النصوص وتحديد مقصود الألفاظ وتوجيه معانيها وهو ما جعله يتبوأ المكانة البارزة في الدراسات اللغوية الحديثة، فما هو السياق؟ وماهي أنواعه؟ وكيف له أن يساهم في بناء أسس الشريعة الإسلامية وجعل الحديث النبوي ذو معنى متناسق مع كل زمان ومكان مما يحفظ للسنة النبوية ثباتها ومكانتها في التشريع؟.

وقد تناولت هذا البحث من حيث المكونات: مقدمة وخمسة مباحث وخاتمة، تطرقت في المقدمة إلى بعض المشكلات التي يواجهها الحديث النبوي وعرض بعض الإشكالات المطروحة، ثم المبحث الأول الذي يعرض محاولة تأصيلية لمفهوم السياق لغة واصطلاحا، وفي المبحث الثاني: أنواع السياق وعلاقته بالمعنى، والمبحث الثالث الذي حاولت فيه إبراز أثر السياق في بيان الدلالة الحديثية، ثم المبحث الرابع الذي عززته بأمثلة تطبيقية لدلالة السياق بأنواعه على المعنى الحديثي، وأخيرا المبحث الخامس الذي أشرت فيه إلى بعض ضوابط تنزيل السياق على النص الحديثي، ثم خاتمة خلصت فيها إلى نتائج البحث مبرهنا دور السياق في معالجة مشكلات فهم الحديث.



## المبحث الأول: مفردات البحث

أ - الإطار اللغوي:

من الأهمية بما كان بيان المفهوم اللغوي للألفاظ، لأنه الركن الأصيل في تحديد المعنى الاصطلاحي وتوضيحه، فنجد لفظ السياق مشتق من مادة (سوق) حيث قال صاحب مقاييس اللغة: السين والواو والقاف أصل واحد، وهو حدو الشيء، يقال: ساقه يسوقه سوقاً. والسَيْقَةُ: ما استيق من الدواب. ويقال: سقت إلى امرأتي صداقها وأسقته. والسوق مشتقة من هذا لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق. والسَّاق للإنسان وغيره، والجمع سُوق، إنما سُمِّيَتْ بذلك لأن الماشي يَنْسَاقُ عليها، والمصدر السَّوْقُ.<sup>1</sup>

وجاء في تاج اللغة: "يقال: ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة أي بعضهم على إثر بعض ليست بينهم جارية"<sup>2</sup>.

وبناء على هذه التعريفات اللغوية يمكن القول على أن أصل مادة (سوق) يحيلنا على التتابع والتوالي والارتباط والاتصال وفق نسق واحد، وهذا التتابع لا يكون فيه انقطاع ولا انفصال فهو متتابع إلى مقصد محدد، وأشارت المعاجم الحديثة إلى ذلك ومنها المعجم الوسيط الذي جاء فيه: "وساق الحديث: سرده وسلسله، وإليك يساق الحديث: يوجهه... وساوقه: تابعه وسايره وجاراه... وانساق: تبع غيره، وانساق: انقاد، وتساوقت الماشية نحوها: تتابعت وتزاحمت في السير"<sup>3</sup>.

إذا فالسياق هو تتابع الكلمات وفق ترابط وانسجام مع الواقع ومراعاة لحال المخاطب والمخاطب، فبه يحدد مدلول العبارات المتضمن في الفقرات والنصوص وسياق الكلام من تواليه وتتابعه وتسلسله.

فكما تساق الماشية داخل قطيع واحد وتتبع بعضها البعض، كذلك تساق الكلمات داخل جمل خاصة.

وجاء في معجم علم اللغة النظري - وهو من المعاجم العربية المتخصصة - أن: "السياق (context): البيئة اللغوية المحيطة بال fonem أو المورفيم أو الكلمة أو الجملة، والنظرية السياقية (Meaning Contextual): هي تفسير معنى الكلمة حسب السياق الذي تقع فيه"<sup>4</sup>.

ب - الإطار الاصطلاحي:

إن تحديد المفهوم الاصطلاحي للسياق من الصعوبة بما كان لوروده بتعاريف متعددة، إذ تناوله العلماء واستعانوا به في فهم دلالات النصوص ونصوا على آثاره من بيان الجملات والترجيح بين المختلفات دون تحديد مفهوم اصطلاحي دقيق، ويشير صاحب البحر المحيط إلى مصطلح السياق بتطرقه إلى دلالاته فقال: "دلالة السياق أنكراها بعضهم ومن جهل شيئاً أنكروه، وقال بعضهم إنها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى"<sup>5</sup>.

وباعتبار دلالة السياق في فهم النص النبوي فقد وضع العلماء القدامى قواعد جليلة لها تأثيرها في جودة المعنى والفهم، من ذلك أن "السياق طريق إلى بيان الجملات وتعيين الاحتمالات وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه ولم أر من تعرض لها في أصول الفقه بالكلام عليها وتقرير قاعدتها مطولة إلا بعض المتأخرين ممن أدركنا أصحابهم وهي قاعدة متعينة على الناظر"<sup>6</sup>.

كما أن "السياق يرشد إلى تبيين الجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم"<sup>7</sup>، وهذا ما يؤكد أن أغلب التعاريف عند القدامى تشير إلى دلالة السياق وليس إلى مفهومه الاصطلاحي، بل حتى في عصرنا هذا لا يزال من المصطلحات العvisية على التحديد الدقيق.



ورغم صعوبة تحديد مفهوم السياق الاصطلاحي هناك من وضع له تعريفا اصطلاحيا في ميدان اللغة الحديث، فقال : " السياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ، ويضبط السياق حركات الإحالة بين عناصر النص، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصفها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السياق"<sup>8</sup>.

ومن الملاحظ أن هذا التعريف السابق قد حصر السياق في شقه اللغوي فقط دون الإشارة إلى سياق الحال، "الذي يجري في إطار التفاهم بين شخصين ويشمل ذلك المحادثة ومكانها، والعلاقة بين المتحدثين، والقيم المشتركة بينهما والكلام السابق للمحادثة"<sup>9</sup>.

ويمكن أن نشير إلى تعريف أكثر شمولاً من التعريف السابق، بأنه: "مجموع الوحدات اللسانية التي تحيط بعنصر معين داخل سلسلة الخطاب وتؤثر فيه"<sup>10</sup>.

وبناء على هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية فصل العلماء في أنواع السياق وصنّفوه إلى<sup>11</sup> :

1 - السياق الداخلي للحدث (سياق المقال أو اللغوي) ويتمثل في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين الكلمات داخل تركيب معين.

2 - السياق الخارجي (سياق المقام أو الحال) ويتمثل في السياق الاجتماعي أو سياق الحال بما يحتويه، وهو يشكل الإطار الخارجي للحدث الكلامي.

وهذان النوعان لا يمكن الفصل بينهما عند التعامل مع النصوص النبوية، بل كل منهما يكمل الآخر ليكتمل المعنى والفهم، فالإقتصار على السياق المقالي وحده سيجعل النص محصوراً على الدلالات والمعاني دون مراعاة السياق الحالي وما يحتويه من إشارات ومعانٍ ترشدنا إلى الفهم الصحيح، والوقف دلالة السياق المقامي تجعلنا بين جنبات الإطار الخارجي للحدث الكلامي دون الولوج إلى العلاقات الصوتية والدلالية للنص.

وقد اعتمد كثيرٌ من الأئمة على دلالة السياق بمفهومه المقالي والحالي في شرح الأحاديث النبوية، وسأحاول الإشارة إلى بعض تطبيقات الأئمة التي ظهر من خلالها أثر دلالة السياق في بيان معنى النص النبوي وفهمه.

### المبحث الثاني : أنواع السياق وعلاقته بالمعنى

يكتسي السياق أهمية كبيرة في فهم معاني النصوص وإجلائها بواسطة قرائن تعين على فهم المعنى وبيانها، فمعرفة النص وملاساته سبيل يخدم التحليل اللغوي للوصول إلى المعنى الدلالي، وهذا ما تفتن إليه علماءنا في دلالة السياق وأهميته في معرفة المعنى المراد من النص " بأنه يرشد إلى تبين الجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام وتقييد المطلق وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره وغالط في مناظرته"<sup>12</sup>.

وهذا يعني أن المعنى المعجمي للكلمة قد يحتتمل معان متعددة، ولو تم ربطه بالسياق المقامي للكلمة لدل على معنى واحد، لأن المعنى السياقي للعبارات يتكون من معاني الألفاظ التي تتألف منها، " فمعنى اللفظ في السياق واحد لا يتعدد، لأنه :

- يوجد في السياق قرائن تعين على اختيار معنى واحد من بين المعاني المختلفة التي نجدتها في المعجم.

- السياق يرتبط بمقام معين يحدد المعنى في ضوء القرائن الحالية"<sup>13</sup>.



وبناء على ما تقدم فإن " قرينة السياق في تحديد المعنى تتفرع إلى قرينتين:

1. قرينة السياق اللغوي (سياق النص) إما أن تكون مبنوية أو دلالية، والأولى قوامها معظم ما تفرزه أنظمة اللغة (الصوت والصرف والنحو والمعجم) من قرائن فهي تفصيلية تأتي من أجزاء النص والعلاقة بينها.

ونستنتج من ذلك أن **قرينة السياق اللغوي** تنقسم أيضاً إلى قسمين:

أ \_ **سياق لغوي متصل (داخلي)** : فهو يعطي للكلمة معنى محدد بعد أن كان معناها في المعجم متعددًا، فهذا السياق يضع الكلمة في سياقها القطعي بعد أن كانت تحمل احتمالات متعددة، فالكلمة أو الجملة في الحديث النبوي لا تكتمل دلالتها استقلالاً في النص إلا إذا كانت مقرونة بما يسبقها وما يلحقها واستيفاء النظر في جميع أطراف الحديث الواحد من مبتدئه إلى منتهاه، وانتظام تراكيبه اللغوية واللفظية، وتقديم أوله وتأخير آخره، وضبط سابقه من لاحقته، والترجيح بين معانيه المحتملة وذلك باحترام قواعد اللغة العربية وأساليب الخطاب.

ب \_ **سياق لغوي منفصل (خارجي)** : ويقوم هذا السياق على دراسة الجوانب للمدلولات اللغوية بوسائط ووسائل خارجية تتمثل في الوحدات الصرفية كصيغ المبالغة والتفضيل والتركيب النحوي كالأستفهام والنفي والنهي والأمر وغيرها، والمصاحبة الكلامية وهي الكلمة التي تصاحب كلمات بعينها، والأسلوب البلاغي مع تتبع الظواهر الأدائية المصاحبة للأداء اللغوي الماثرة في النبر والتنغيم والوقف والفواصل، فإن قلت: (أنت مجتهد) فقد تحتل معنيين مختلفين من مدح أو سخرية على حسب النغمة التي تؤدي بها العبارة.

وبناء على ما سبق نجد أن الكلمة الواحدة تختلف باختلاف السياق الذي ترد فيه ونضرب لذلك مثلاً بجمل لنا الحديث عن السياق اللغوي لكلمة "ضرب" في القرآن التي يختلف معناها حسب السياق اللغوي الذي تكتنفه :

- ضرب بمعنى مثل في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾<sup>14</sup>.

- ضرب بمعنى سعى في قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَقُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾<sup>15</sup>.

- ضرب بمعنى جعل في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا نَحْشَى ﴾<sup>16</sup>.

- ضرب بمعنى أعرض أو أهمل في قوله تعالى: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا إِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾<sup>17</sup>.

فهذه معاني مقتضبة للفظ ضرب في القرآن من كتب اللغة والتفاسير توحى لنا إلى مدى غزارة اللغة العربية ودلالاتها الكثيرة التي نستنبطها استناداً إلى السياق المعاصر.

ومن ذلك كان لعلماء الحديث اهتمام كبير بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حفظاً وضبطاً وحلاً لغوامض ألفاظها بضبط مسالك المعنى والفهم وطرق الاستنباط مما يجنبهم مزالق الزلل وذلك بالاستناد إلى مسالك السياق اللغوي الخارجي المتمثل في أنواع الحديث الموصلة للمعنى المقصود بعيداً عن التعارض، وتحقيقاً للجمع بينها ما أمكن والترجيح بينها بأحد المرجحات، ونشير هنا إلى ثلاثة علوم بمثابة السياق اللغوي الخارجي للنص الحديثي المعينة على الفهم والوصول للمعنى المقصود وهي: علم مختلف الحديث<sup>18</sup>، وعلم ناسخ الحديث ومنسوخه<sup>19</sup>، وعلم غريب الحديث.



2. قرينة السياق غير اللغوي (سياق الموقف) تكون قرينة واقعية أو قرينة عقلية، والواقعية مبناهما العرف السائد أو الأحداث التاريخية أو المواقع الجغرافية أو العلاقات العلمية في إطار الموقف الذي حدث فيه الكلام، والقرينة العقلية تنشأ عن تداعي المعاني بحيث يثير بعضها بعضاً في تسلسل منطقي.

فهذا النوع من السياق يمثل البيئة التفاعلية بين المتحدث والمخاطب، لأنه أحياناً لا يكفي النص اللغوي لإفادة المعنى المراد إلى المتلقي، فيسعى المتحدث إلى أساليب أخرى لإيضاح وبيان ما يريد إيصاله، من ذلك حركات اليد أو ملامح الوجه. ويهتم هذا النوع من السياق بالظروف والملابسات والمواقف التي تم فيها الحدث اللغوي والمتصلة به، فهو الموضح للعلاقة القائمة بين المتكلم والمخاطب، حيث تحكمه قرائن واقعية تستند إلى أمور عرفية وثقافية تحيلنا إلى معرفة العرف السائد والعادات والتقاليد والمحيط الاجتماعي، أو وقائع تاريخية في السيرة تتضمن أشخاصاً أو أقواماً دون تسميتهم أو تحديدهم مما يتطلب منا الرجوع إلى كتب الحديث والسنة النبوية عموماً، كما أن معرفة الموقع الجغرافي يجعل النص أكثر وضوحاً وأتم فائدة بتحديد حكم معين لفئة معينة مع مراعاة البعد الزمني للمحادثة.<sup>20</sup>

وقد يجد المتلقي في النص معاني يتعذر فهمها مما يدفعه إلى اللجوء إلى قرائن عقلية تصرف المعنى عن ظاهر النص بطريق البرهان والاستدلال العقلي إلى معاني لا تعارض فيها، ويمكن قبولها بناء على مرجعيات عقدية وفكرية. فالقرائن الحالية كثيرة جداً ومتنوعة لصعوبة حصرها في جنس أو عدد أو ضبطها بوصف معين، "فلكل كلمة مع صاحبها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو الذي نسميه مقتضى الحال"<sup>21</sup>، وهو ما عبر عنه إمام الحرمين بقوله: "وهي تنقسم إلى قرائن مقال وإلى قرائن أحوال، أما الأحوال فلا سبيل إلى ضبطها تجنيساً وتخصيصاً"<sup>22</sup>.

وأثر هذه القرائن السياقية للنص في إقامة المعنى نستشعرها عند المحدثين بتتبع أحوال الحديث، وقصد المتحدث وحال المخاطب والبيئة المحيطة بهم، ويتمثل هذا المنهج عند المحدثين باستنادهم إلى علم أسباب الورد على غرار أسباب نزول القرآن، وقد عني المحدثون بذلك إنما عناية باعتبار أكثر الميادين عناية بالسياق لما يترتب عليه من إدراك الأحكام والكشف عن المعاني الحديثية بدقة، فهو يهتم بالجمع الموضوعي لروايات الحديث وطرقه المختلفة.

وهذا ما سنبينه من خلال عرض نماذج لأثر السياق بنوعيه في فهم الحديث النبوي الشريف.

### المبحث الثالث : أثر السياق في بيان الدلالة الحديثية

يعد السياق مفهوماً استراتيجياً لفهم الخطاب، إذ من دونه يصعب تأويل النص الحديثي والوصول إلى قصد الشارع، فالسياق يسعى إلى تقريب المعنى الصحيح للحديث النبوي بوسائل خارجية وداخلية كتتنوع البيئات والمشارب واختلاف الثقافات والمدارس وغير ذلك من الوسائل الموصلة للمعنى المقصود.

وقد تنبه كثير من علماء الغريب وشرح الحديث ومن تعامل مع ضبط الأحاديث ومتونها إلى ضرورة الاهتمام بالسياق، حيث نجد بعض المرادفات والألفاظ الواردة في كتبهم التي كان فيها ذكر لدلالة السياق، من بينها المرادفات التالية: "مقتضى الظاهر" و "ظاهر الحديث" و "سياق الحديث" و "سياق الرواية" وغيرها كثير، "والسياق في مصنفات المحدثين لا يكاد يغيب مصطلحاً ومفهوماً، حتى بات لنا الاطمئنان إلى القول بأن الدراسات الحديثية دراسات تداولية بامتياز وأن الشروح الحديثية هي عبارة عن تحليل سياقي."<sup>23</sup>



ويظهر جليا "دقة المحدثين في هذا الباب وهم يتعاملون مع السنة النبوية وسياق الخطاب فيها صنيع الحافظ ابن حبان البستي في صحيحه المسمى (التقاسيم والأنواع)، إذ جعل السنة بين يديه، بل ملء خاطره وعينه، ونظر في كيفية صدورها عن النبي صلى الله عليه وسلم، والسياق الذي جاءت فيه، ثم قسمها أقساما وجعل تحت الأقسام أنواعا؛ حتى يسهل منها الاستنباط وتعرف منها معاهد الأحكام الشرعية فلا يزل قارئها ولا يخطئ المجتهد فيها ولا توضع إلا في مواضعها." <sup>24</sup>

وتتجلى عناية علماء الحديث بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مراعاتهم للسياق بمعرفتهم لحال الراوي ونوع الحديث ومخارجه وأحوال السند وما يطرأ عليه من اتصال أو انقطاع أو تدليس أو تساهل بعض رجاله في السماع أو سوء حفظه أو اتهامه بالفسق أو الكذب أو غير ذلك، مع الاهتمام بأحوال المتن وما يعتريه من رفع أو وقف أو شنوذ أو صحة أو غير ذلك، بل إن المحدثين ذكروا أن من دلائل الوضع في الحديث مخالفته لمخالفته لسياق الوقائع الحسية المشاهدة أو التاريخ أو غيرها من القرائن السياقية، وذلك أمر مفروغ منه في كتب المصطلح، مطبق على أوسع نطاق في نقد الأحاديث، كما أن علماء الحديث تتبعوا حياة الصحابة وحددوا تاريخ إسلام كل واحد منهم، وكل هذا من أجل الصون عن الخلل في نقل الحديث وحتى تكون الأحاديث النبوية في سياقها متوافقة متناسقة مع النص القرآني والعقل.

فمعرفة سياق الحديث وسبب وروده تحدد تاريخ النص، ونعرض مثلا بين لنا مدى أهمية السياق التاريخي وغيره عند المحدثين في بيان الأحاديث الصحيحة ودحض الموضوعة منها، من ذلك ما جرى مع الحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي سنة 447 هـ أنه: "أظهر بعض اليهود كتابا بإسقاط النبي صلى الله عليه وسلم الجزية عن الخيابة وفيه شهادة الصحابة، فعرضه الوزير على أبي بكر، فقال: هذا مُزَوَّر، قيل: من أين قلت هذا؟ قال: فيه شهادة معاوية، وهو أسلم عام الفتح بعد خير، وفيه شهادة سعد بن معاذ ومات قبل خير بستين." <sup>25</sup>

وباعتبار السياق في إبراز الدلالة الحديثية عند المحدثين أنهم تعاملوا مع الحديث النبوي على أنه جملة واحدة، وهو ما " اقتضى جمع الطرق والروايات كلها لتحديد كيفية صدور الحديث النبوي، وإذا كان علماء القرآن قد وضعوا من ضوابط التفسير جمع الآيات ذات الموضوع الواحد وتفسير القرآن بالقرآن، فإن المحدثين قد سلكوا هذا المسلك وجمعوا روايات الحديث الواحد وطرقه ليفسر بعضه بعضا ويدرك الناظر في طرق الحديث معاني الحديث ومقاصده بدقة" <sup>26</sup>، فكان لجمع الروايات فوائد عظيمة جدا في بيان السياق الذي ورد في الحديث وإظهار دلالاته، فبه يُكتشَف المبهم ويُعرف الغريب والشاذ، وبه تبين درجة الحديث من صحة أو ضعف مع بيان الأحكام الشرعية.

ويعد سبب الورد من أكثر الميادين التي ظهرت فيها العناية بالسياق فهو مُعَرَّف للظرف الذي لأجله ذكر الحديث وما احتف به من الظروف والملابسات، وهذا يفيد كثيرا في وسائل الإجتهد وتنزيل الأحكام على الوقائع والنوازل، كما أنه معين لعدم ورود الخطأ في فهم النص الحديثي وتنزيله على غير محله.

كما يعتبر النسخ من العناصر السياقية المحيطة بالنص والتي تساهم كثيرا في بيان الأحكام وتوضيحها، فالنظر إلى علاقة الحديث بما يشبهه موضوعيا يجد من بتر سياقه كما يضعف من فقدانه خصوصياته ويصبح قابلا لأن يمنح دلالة مقصودة سليمة، فالسياق من أهم ما يميز وقوع النسخ في الحديث من عدمه بل هو من أعظم ما يقرر مقصود الحديث حتى مع نسخه، وبقاء الحديث بعد نسخه لا بد أن يكون لغرض مقصود، ويكون دالا على حكم معين بعد النسخ، من ذلك ما ورد في الحديث الشريف: " عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحب موافقة أهل الكتاب فيما يؤمر فيه، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم فسدل النبي صلى الله عليه وسلم ناصيته ثم فرق بعد" <sup>27</sup>.



وجاء في حديث آخر: " إن أبا هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن اليهود والنصارى لا يَصْبُغُونَ فخالفوهم"<sup>28</sup>.

ويظهر لنا من خلال القراءة الأولية لهذين الحديثين وجود تعارض في المعنى والمضمون، غير أنهما يحملان دلالة سياقية تعين على تحقق الفهم السليم دون إخلال بالمعنى المقصود تعين على فهم المعنى المقصود من خلال دراسة الحثيات والملابسات المحيطة بالنصين، " فإن قال قائل: قول ابن عباس: (كان النبي عليه السلام يجب موافقة أهل الكتاب)، يعارض قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم). فالجواب: إن حديث ابن عباس يحتمل أن يكون في أول الإسلام في وقت قوي فيه طمع النبي - عليه السلام - برجوع أهل الكتاب وإنابتهم إلى الإسلام وأحب موافقتهم على وجه التآلف لهم والتأنيس مع أن أهل الكتاب كانوا أهل شريعة، وكان المشركون لا شريعة لهم فسدل عليه السلام ناصية، إذ كان ذلك مباحاً لأنه لم يأتيه نهي عن ذلك، ثم أراد الله تعالى نسخ السدل بالفرق فأمر نبيه بفرق شعره وترك موافقة أهل الكتاب و (كان) إخبار عن فعل متقدم، وقوله: (ثم فرق بعد) إخبار عن فعل متأخر وقع منه عليه السلام بمخالفة أهل الكتاب، وهذا هو النسخ بعينه، لقوله عليه السلام: (إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم) فأمر بمخالفتهم عاماً"<sup>29</sup>.

لذلك لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار المخاطب والمخاطبين الذين وُجِهت إليهم الدعوة ومساق الخطاب وسياقه، فعملية الخطاب - كما أشرنا سالفاً - تتحكم فيها ثلاثة أركان أساسية هي: المخاطب والمخاطب والسياق.

و "الحديث النبوي يمثل منظومة متكاملة الأطراف، وبنية متناسقة العناصر، فأى إهمال للملابسات المرتبطة بالحديث النبوي أو اجتراء لبعض مكوناته، يؤدي في مجال الدراية إلى فهم قاصر يتجلى في ضيق الرؤية الفقهية وانحصارها في المعاني الجزئية وتغييب للفهم الكلي للحديث النبوي المتمثل في استصحاب فقه الأولويات وفقه الموازنات وفقه الواقع وفقه التنزيل وفقه المرحلة وفقه المقاصد الشرعية"<sup>30</sup>.

كما أن دور المحدثين في تحقيق الفهم الصحيح وإقامة معانيه على الوجه السليم، تتجلى في دحض شبهات المستشرقين واختلال منهجهم العلمي من وجوه كثيرة:

- كوضع النصوص في غير موضعها دون إلمام بسياقها المقالي والمقامي وتحميلها مالا تطيقه ألفاظها.
- اعتمادهم على نصوص مفردة مقتطعة عما ورد في موضوعها مما يوضح المراد منها ويبينه، وهذا ما يبين لنا أهمية السياق بنوعيه في تحقيق الفهم الصحيح بعيداً عن كل شبهة.
- استنادهم على مصادر ليست في مستوى البحث العلمي، غاضبين الطرف عن الكتب الصحاح التي راعت أصول علم الحديث ومناهجه.

- إغفال الحقائق التي تخالف استنتاجاتهم وتبطلها.

وهذه الشبهات جزء من فيض، تبين لنا مدى خطورة إغفال السياق الحديثي وما ينجم عنه من مشكلات فهم النص الحديثي أو الأخذ المقتطع للنص عما يكمله أو النقل المحرف.

و "فهم الحديث النبوي وإدراك معناه متوقف على استيفاء جميع روايات الحديث النبوي الواحد حسب اختلاف مخارجه، والتركيز على "الاعتبار" الذي هو عند المحدثين تتبع متابعات الحديث سواء كانت تامة أو ناقصة، والبحث عن شواهد الأخرى، لأنه بالشاهد يزول اللبس الحاصل في اختلاف الألفاظ وتبين غايات الألفاظ وما تؤول إليه وفقاً للمقاصد العامة للشريعة الإسلامية"<sup>31</sup>.



فبالسياق يتم تخصيص العام وتعيين المبهم وبيان المجمل، وهذا ما سنحاول إبرازه من خلال الأمثلة التطبيقية لكل نوع من أنواع السياق.

#### المبحث الرابع : أمثلة تطبيقية لدلالة السياق على المعنى الحديثي

أسهم السياق بشكل كبير في توجيه العديد من الأحاديث النبوية الشريفة، حيث كان خير معين في إبراز الدلالة الحديثية والمعنى المراد والمقصود من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ظهرت ثمرات دلالة السياق في كتب شروح الحديث في جوانب مختلفة، وبناء على ذلك سنعرض أمثلة مقتطفة وفق أنواع السياق.

أ - أمثلة لسياق المقال المتصل :

من مميزات اللغة العربية أن بعض ألفاظها تكتنف عددا من الدلالات أو أنها تحمل دلالة عامة تنطبق على عدد من الأمور، فيأتي السياق ليكشف عن الدلالة التي ينبغي أن يُصرف اللفظ إليها ويخصها بها، من ذلك:

✓ حديث عمر: (صوموا من الوضح إلى الوضح، فإن خفي عليكم فأتوا العدة ثلاثين يوما)<sup>32</sup>، " أصل الوضح هو البياض والضوء، ويطلق على بياض الصباح والقمر واللبن والشيب وغيره"<sup>33</sup>، والبياض هنا دلالة عامة، فرجح علماء شراح الغريب أن يكون المعنى المقصود في الحديث هو: " من الهلال إلى الهلال، وهو الوجه، لأن سياق الحديث يدل عليه. وتماهه : فإن خفي عليكم فأتوا العدة ثلاثين يوما"<sup>34</sup>، فترجيح دلالة الوضح ببياض الهلال تستند إلى السياق اللغوي الذي وردت فيه باستيفاء النظر في جميع أطراف الحديث من مبتدئه إلى منتهاه، وضبط سابقه من للاحقه، لأن كلمة "صوموا" في أول الحديث وعبارة "فإن خفي عليكم فأتوا العدة ثلاثين يوما" التي بعدها، جعلت السياق لا يحتمل إلا هذه الدلالة.

✓ ومن الألفاظ التي تعد من المشترك اللفظي مع اختلاف معناها عند شراح الحديث، لفظ: وضع أو يضع، حيث ورد في الحديث النبوي: " (إن الله واضع يده لمسيء الليل ليتوب بالنهار، ولمسيء النهار ليتوب بالليل)، أراد بالوضع هاهنا البسط، وقد صرح به الرواية الأخرى: (إن الله باسط يده لمسيء الليل)<sup>35</sup>، وهو مجاز في البسط واليد...، وقيل: أراد بالوضع والإهمال، وترك المعالجة بالعقوبة...، وحديث: (ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيضع الجزية)<sup>36</sup> أي يحمل الناس على دين الإسلام، فلا يبقى ذمي تجري عليه الجزية."<sup>37</sup>

ومن الأمثلة التي استند فيها علماء الحديث إلى دلالة السياق اللغوي في ضبط ألفاظ الحديث النبوي:

✓ حديث أكل الضب الذي رُوِيَ عن سليمان بن يسار أنه قال: (دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ميمونة بنت الحارث فإذا ضباب فيها بيّض...)<sup>38</sup>، فكلمة "بيّض" الواردة في الحديث تحتمل معنيين باختلاف التراكيب اللغوية واللفظية:

- بيّضٌ: بفتح الباء، يكون معناها بيض الدجاج أو غيره من الطيور.

- بيّضٌ: بكسر الباء، يكون معناها البياض، فتؤول إلى معنى ضبابٌ بيضاء اللون.

وباعتماد السياق اللغوي للحديث مع احترام تراكيب قواعد اللغة العربية في إيراد الكلام وانتظام معانيه، نجد أن "الرواية الأولى أصح نظرا لقوله: (فيها)، لأنه لو كان بكسر الباء لكان (بيّض) صفة (لضبابٍ)، فلم يكن موقع لقوله: (فيها)، إذ لا يصلح شيء من الكلام السابق لذلك. ومعنى (فيها بيّض): أن الضَّبَاب كانت محشوة بيّض دجاج مصلوق"<sup>39</sup>.

✓ أيضا من بين كلمات المشترك اللفظي: (المولى)، والتي تحمل دلالات متعددة بحسب السياق اللغوي الذي ترد فيه، حيث أنه " قد تكرر ذكر (المولى) في الحديث، وهو اسم يقع على جماعة كثيرة، فهو الرَّبُّ والمالِكُ والسَيِّدُ والمُنْعَمُ والمُعْتَقُ والتَّاصِرُ والمُجْبُ





والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمعتق والمعتوم عليه وأكثرها قد جاءت في الحديث فيضاف كل واحد إلى ما يقتضيه الحديث الوارد فيه<sup>40</sup>، واستنادا إلى السياق اللغوي فقد تعددت معاني كلمة المولى بسبب ورود الحديث، ففي الحديث: " (من كنت مولاه فعلي مولاه)<sup>41</sup> إشارة إلى معنى المحب التابع<sup>42</sup>، وفي حديث: " (أما امرأة نكحت بغير إذن موليتها فنكاحها باطل)<sup>43</sup> وفي رواية (وليتها) أي متولي أمرها<sup>44</sup>.

فهذه المعاني إشارة إلى غزارة اللغة العربية وإلى أهمية الدلالة السياقية اللغوية في إبراز المعنى المقصود من الكلمة بحسب سياقها في الحديث النبوي وهذا ما دأب عليه شراح وعلماء الحديث.

✓ ومنه حديث: (المستهترون بذكر الله)<sup>45</sup> يعني الذين أولعوا به<sup>46</sup>، و"منه حديث: (المستبأن شيطانان، يتهاثران ويتكاذبان)<sup>47</sup>، أي يتقاولان ويتقاجان في القول، من الهثر بالكسر، وهو الباطل والسقط من الكلام<sup>48</sup>.

من خلال الحديثين نجد كلمة المستهتر أصلها هتر، وتعني الولوع بالشيء، والكذب والخرف والسقط من الكلام والخطأ فيه، فالكلمة تحمل دالتين متضادتين، فسبب أصل الكلمة عام وهو الولوع بالشيء حقاً كان أو باطلاً، لكن المعنى الحقيقي للكلمة يتجلى لنا بحسب سياق ورودها في الحديث والنظر فيما قبلها وما بعدها من الألفاظ حتى نتحقق لنا الدلالة الأصلية للكلمة في الحديث.

✓ ومنه حديث: " أخبرني محمود بن الربيع، وزعم أنه عقّل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعقّل حجّة حجّها من دلّو كان في دارهم<sup>49</sup>.

لفظة زعم لها دلالات ومعان عديدة، لأن " -زعم- الزعم يطلق على القول المحقق وعلى القول المشكوك فيه وعلى الكذب، وينزل في كل موضع على ما يليق به، والظاهر أن المراد به هنا الأول، لأن محمود بن الربيع موثّق عند الزهري، فقوله عنده مقبول<sup>50</sup>.  
بناء على هذه الأمثلة يتضح لنا تغير المعنى رغم الاشتراك اللفظي للكلمة وذلك راجع إلى أهمية استحضار أطراف الحديث كاملة وشواهدة ومؤتلفه ومختلفه وإلى السياق الذي وردت فيه الكلمة والترجيح بين معانيها المحتملة مع احترام قواعد اللغة العربية وأساليب الخطاب.

ب - أمثلة لسياق المقال المنفصل:

يقوم هذا النوع من السياق بدراسة الدلالات اللغوية وبقرائن خارجية تتمثل في المستوى الصوتي "الفونولوجي" المصاحب للأداء اللغوي المبتوث في النبر والتنغيم والوقف والفواصل، وتوجيه الاختلافات الصوتية والقيمة التعبيرية للصوت مع دراسة الوحدات الصرفية كصيغ المبالغة والتفضيل والتركييب النحوي كالاتسافهم والنفي والنهي والأمر وغيرها.

ومن الأمثلة الدالة على أثر السياق اللغوي المنفصل:

✓ " حديث أسامة بن زيد بن حارثة -رضي الله عنهم- يحدث قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحرقة من جهينة، فصبّحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلا منهم فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله. فكفّ عنه الأنصاري وطعنته برمحي حتى قتلته. قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، قال قلت: يا رسول الله إنما كان مُتَعَوِّذاً. قال فقال: أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، قال فمأزال يكرّرها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم<sup>51</sup>.



من خلال السؤال التنغمي الذي جاء من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكراره على سبيل التوبيخ والذم والتقريع كشف لنا عدم رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم لفعل أسامة بن زيد، ويستنبط منه أيضا حكم من قتل رجلا أسلم ونطق بلا إله إلا الله، فطريقة خروج الاستفهام عن أدائه العادي إلى معنى الإنكار والتوبيخ وسيلة من وسائل التنغم التي يعتمد عليها في تحقيق السياق اللغوي للحديث النبوي.

✓ "حديث أبو هريرة -رضي الله عنه- قال جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله أي الصدقة أعظم أجرا؟ قال: أن تصدق وأنت صحيح شحيح تحشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم..."<sup>52</sup>  
فحذف الفاعل في عبارة "إذا بلغت الحلقوم" أي الروح تحمل دلالات سياقية لأنه: "إذا بلغت" أي الروح، والمراد قاربت بلوغه، إذ لو بلغته حقيقة لم يصح شيء من تصرفاته ولم يجر للروح ذكر اغتناء بالسياق"<sup>53</sup>.

ومنه أن السياق المصاحب للمستوى الصوتي كالتنغم يفرقان -على سبيل المثال- بين استخدام "يا" للنداء واستخدامها للاستغاثة، ففي:

✓ حديث سلمة بن الأكوع يقول: خرجت قبل أن يؤذن بالأولى، وكانت لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم ترعى بذي قرد-قال- فلقيني غلام لعبد الرحمن بن عوف فقال: أُخِذْتُ لِقَاحِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: من أخذها؟ قال: غطفان. قال فصرخت ثلاث صرخات يا صباحاه..."<sup>54</sup>.

فعبارة "يا صباحاه" تدل على الاستغاثة، وهذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح، ويسمون يوم الغارة يوم الصباح، فكان القائل يا صباحاه يقول قد غشينا العدو، وقيل إن المتقاتلين كانوا إذا جاء الليل يرجعون عن القتال، فإذا عاد النهار عاودوه، فكانه يريد بقوله يا صباحاه: قد جاء وقت الصباح فتأهبوا للقتال."<sup>55</sup>  
وهنا يظهر لنا أثر السياق في بيان معنى "يا" وأنها للاستغاثة، فسلمة بن الأكوع -رضي الله عنه- لما سمع ما فعلته غطفان استغاث، لأن الموقف أو المقال لا يستدعي نداء وإنما استغاثة.

✓ وتستعمل "يا" للنداء، ومنه "حديث البراء رضي الله عنه قال: كنا إذا صلينا خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم أحببنا أن نكون عن يمينه، يُقبل علينا بوجهه، فسمعتة يقول: رب قني عذابك يوم تبعث أو تجمع عبادك."<sup>56</sup>  
والتقدير هنا: يا رب، حذف النداء لقرب الله من عباده لقوله تعالى: {قَائِلِي قَرِيبٌ} <sup>57</sup>، والسياق بمعونة التنغم يؤكد هذا الحذف، وكذلك الاختلافات الصرفية والصوتية والتفريق بين ياء النداء وياء الاستغاثة، وهذه أمثلة موجزة. تبين لنا الدور الهام الذي يتبناه السياق اللغوي الخارجي عند المحدثين وكيف يساهم في الكشف عن حقائق المعنى الصحيح والدلالة المنشودة.

✓ ومنه أيضا أمثلة لبعض الصيغ الصرفية التي يستنبط معناها الدقيق استنادا إلى السياق اللغوي، كحديث أنس بن مالك: "... فقال الرجل للنبي صلى الله عليه وسلم: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك..."<sup>58</sup>.

"قوله: "فلا تجد" أي لا تغضب، ومادة "وجد" متحدة الماضي والمضارع مختلفة المصادر، بحسب اختلاف المعاني، يقال في الغضب موجدة، وفي المطلوب وجودا، وفي الضالة وجدانا، وفي الحب وجدنا بالفتح، وفي المال وجدنا بالضم، وفي الغني جد بكسر الجيم وتخفيف الدال المفتوحة على الأشهر في جميع ذلك، وقالوا أيضا في المكتوب وجادة وهي مولدة."<sup>59</sup>

فصيغة وجد تأتي بمعان متعددة، وذلك باختلاف مصادرها فالكلمة يمكن أن تشتق منها مصادر عديدة، ولا يمكن تحديد المعنى في النص إلا من خلال الاستعمال السياقي فهو المحدد الأول للمقصود من الكلمة.



ج - أمثلة لسياق الحال :

يمثل سياق الحال أو المقام مجموعة من القرائن التي تعين على فهم العبارات، ويشمل السياق الثقافي وعادة المتكلم في توجيه المعنى من خلال اعتقادات مشتركة بين أفراد البيئة اللغوية مع مراعاة العرف الزماني والمكاني للمتكلم، وهو ما يطلق عليه عند المحدثين بسبب ورود الذي يشكل اتصالاً مباشراً بظروف الخطاب وملايساته المختلفة ويتضمن أسباب النزول والنسخ، فهذه العلوم تعتبر الأرضية الصلبة للوقوف على معنى السياق المقامي للنص، ونعرض لذلك بعضاً من الأمثلة :

✓ منه حديث: "عن رُوَيْفِعِ بْنِ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ : كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ افْتَتَحَ حُتَيْنَا، فَقَامَ فِينَا خَطِيبًا فَقَالَ : لَا يَجِلُّ لِأَمْرِي، يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ..."<sup>60</sup>.

إن سياق الحديث يوحي للوهلة الأولى منع الرسول صلى الله عليه وسلم مبدأ التعاون والمؤازرة بين المؤمنين، وهذا مما يتناقض مع نظام التشريع الإسلامي المبني على التكافل والتراحم، فهذه الكناية لا يمكن أن نصل إلى معناها الحقيقي إلا في سياقها الحالي المرتبط بمناسبتها، وقد عبر عن ذلك علماء العربية قديماً وأصدق تعبير حين قالوا : " لكل مقام مقال"، فهذا الحديث مقطع من خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فتح خيبر، حيث قال راوي الحديث: رُوَيْفِعُ بْنُ ثَابِتِ الْأَنْصَارِيِّ وهو يفسر الحديث على المعنى المقصود وفق الحال الذي سبق فيه الحديث : " يا أيها الناس، إني لا أقول فيكم إلا ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوله فينا يوم خَيْبَرَ، قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لا يجِلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْقِيَ مَاءَهُ زَرْعَ غَيْرِهِ، يعني إتيان الحبالى من السبايا، ولا يجِلُّ لِأَمْرِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَصِيبَ امْرَأَةً مِنَ السَّبْيِ حَتَّى يَسْتَبْرئَهَا..."<sup>61</sup>، فبعد ربط الحديث بسياقه تبين لنا المعنى الحديثي الذي يدور حول صَوْنِ نظام الأسرة الإسلامية من خلال استبراء الرحم من ماء الزوج السابق حتى لا تختلط الأنساب.

وللنسخ علاقة قوية بين النص والواقع، فهو نسيج لتفاعل النص مع سياقه الثقافي والاجتماعي بحسب أحوالهم، فالنص له علاقة بأسباب الورد من التخصيص والتقييد، من ذلك :

✓ حديث: " عن أنس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يَتَوَضَّأُ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ، قُلْتُ: كَيْفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قَالَ: يُجْزِي أَعْدَانَا الْوُضُوءُ مَا لَمْ يُجِدْثْ"<sup>62</sup>، وقد زاد الإمام الترمذي من طريق حميد عن أنس : " طاهراً أو غير طاهر"<sup>63</sup>، و " قوله: عند كل صلاة أي مفروضة، زاد الترمذي من طريق حميد عن أنس : طاهراً أو غير طاهر، وظاهره أن تلك كانت عاداته، لكن حديث سويد المذكور في الباب يدل على أن المراد الغالب، قال الطحاوي: يحتتمل أن ذلك كان واجبا عليه خاصة ثم نسخ يوم الفتح لحديث بريدة، يعني الذي أخرجه مسلم أنه صلى الله عليه وسلم صَلَّى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، وأن عمر سأله فقال : عمدا فعلته، وقال: يحتتمل أنه كان يفعله استحباباً، ثم خشني أن يظن وجوبه، فتركه لبيان الجواز، قلت: وهذا أقرب، وعلى تقدير الأول، فالنسخ كان قبل الفتح بدليل حديث سويد بن النعمان، فإنه كان في خيبر وهي قبل الفتح بزمان."<sup>64</sup>

ومن الإشكالات التي يعالجها سياق الحال في الأحاديث النبوية وهو استنباط حكم فقهي من ظاهر الحديث مع تغير في بعض جزئيات هذا الحكم بحسب اختلاف حاجيات كل زمان ومكان، وبحسب أحوال وظروف المكلفين تيسيراً لهم بعيداً عن المشقة والتكلف، ومن ذلك :

✓ حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال : " فرض النبي صلى الله عليه وسلم صدقة الفطر - أو قال: رمضان - على الذَّكَرِ والأُنثَى والحَرِّ والمملوكِ صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير فعَدَلَ الناس به نصف صاع من بُرٍّ، فكان ابن عمر رضي الله عنهما، يعطي التمر فأعوز أهل المدينة من التمر، فأعطى شعيراً، فكان ابن عمر يعطي عن الصغير والكبير..."<sup>65</sup>.



✓ وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: "كنا نعطيها في زمان النبي صلى الله عليه وسلم صاعاً من طعام أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير أو صاعاً من زبيب، فلما جاء معاوية وجاءت السمراء قال: أرى مُدًّا من هذا يُعْدَلُ مُدَّيْنِ".<sup>66</sup>

رأى معاوية رضي الله عنه العدول عن ظاهر الحديث مراعاة لمقصد الشرع، فعَدَلَ عن الأصناف المذكورة في الحديث إلى البر، وعدل عن مقدار الصاع أيضاً فرأى أن قيمة نصف صاع من بر تعادل صاعاً من تمر أو شعير، وهذا ما يقتضيه عصره مع تنزيل الحديث بحسب سياق زمانه، ومن ذلك ما رآه الحنفية في أن المقصد من الحديث والغرض من زكاة الفطر هو إغناء الفقير وكفه عن المسألة، لذلك قال بعض فقهاءهم بجواز " دفع القيمة وهي أفضل عند وجدان ما يحتاجه لأنها أسرع لقضاء حاجة الفقير، وإن كان زمن شدة فالحنطة والشعير وما يؤكل أفضل من الدراهم".<sup>67</sup>

وهذا ما يبين لنا أثر تنزيل الحديث النبوي وفق ما يقتضيه سياق الحال المعاش ولو بتغيُّر الوسائل المذكورة في الحديث مع تحقق المقصد الأسمى من الزكاة، وهذا ما استشعره الصحابة والتابعون فتغيَّر الأحوال في عصر معاوية إلى عصر أبي حنيفة ثم إلى عصرنا الحاضر، يشير إلى أن مقصد الحديث وروح التشريع يصب في دفع القيمة في الزكاة ويحقق غنى أكثر للفقير مع رفع الحرج عنه وعن الغني، فسياق ورود الحديث في زمن النبوة ليس هو واقع ورود نفس الحديث في زمن الصحابة ولا في زمن التابعين ولا زماننا الحاضر، فالوسائل تتغير وتتبدل والأصول الإسلامية تبقى ثابتة لا تتغير وإنما يتغير فهمنا بتغير الوسائل والأحوال، وهنا تظهر أهمية مفهوم السياق وكيف لها أن تؤثر في المعنى الحديثي من زمان لآخر.

#### المبحث الخامس : ضوابط تنزيل السياق على النص الحديثي:

تقدم لنا دور السياق في استنباط المعنى ودوره في تحقيق تماسك النص، غير أنه للنص سلطة مادية تتجلى في تتبع العناصر المساهمة في استمرارية التفاعل بين النص الحديثي ومتلقيه مما يدفع عنه إشكالية فهمه وتلقيه ودرء الشبهات عنه وتعدد القراءة بحسب الواقع الزماني والمكاني، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال الالتزام بضوابط معينة على ذلك، ونذكر منها:

✓ ضرورة جمع أطراف نص الحديث الواحد كاملة، فالسياق يكون تاماً بتمام النص ويكون ناقصاً بنقصانه، وقد أشرنا إلى ذلك في الأمثلة السالفة وكيف لها أن تؤثر في المعنى، فشخصية المتكلم والسامع ومن يشهد الكلام والعوامل والأوضاع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة والمرتبطة بالحدث اللغوي كالإقناع أو الفرح أو الغضب أو الإغراء، والأحداث الغير اللغوية كالعرف السائد أو الأحداث التاريخية أو المواقع الجغرافية أو العلاقات العلمية وغيرها...، وهذه أمور متأصلة في علم الحديث تتمثل في تتبع طرق الحديث ومخارجه وجمع كل أطرافه مما يساعد على استنباط المعنى كاملاً.

✓ تتبع الأحاديث وكشف خباياها من صحة وضعف وعدالة وضبط، فقد اهتم العلماء على مر العصور بالحديث النبوي جمعاً وتدويناً ودراسة وشرحاً، وتم فرز الصحيح والضعيف والحسن منه، وإذا تحققت هذه الضوابط لزم ربط الحديث بسياقه حتى لا يفصله عن سبب وروده مما يمكننا من ربطه بمعناه الأصلي.

✓ استنباط المقصد الشرعي من المعنى الحديثي والإلمام بفقهِه الواقع حتى تتجنب التناقض النصي للحديث مع الواقع المعاش، وهذا ما يجعل الشريعة الإسلامية مسارية ومواكبة لأحداث ونوازل الزمان والمكان، مما يمكن للسياق المعاصر الانسجام مع المعنى الحديثي وتحقيقاً للمقصد الشرعي ودفع اللبس والتوهم بين العلماء الحاصل في بعض المسائل الفقهية والأصولية المختلف فيها.



## خاتمة

استنادا إلى الأفكار التي قدمناها في هذا البحث، نستخلص مجموعة من النتائج تتمثل في :

- ✓ أن اللغة العربية حتملة أوجه، وبوجود السياق يمكن توجيه ألفاظها وبيان مقاصدها.
- ✓ أن السياق المعاصر شبيه إلى حد ما جزئيات علم الحديث كمعرفة سبب ورود الحديث ومناسبته وملابساته التي قيل فيها.
- ✓ أن الأخذ بالسياق في فهم الحديث باعتبار أوضاع العصر ومراعاة الوقائع والأحوال، تركي روح التجديد ومواكبة تيار الحياة في فهم الشريعة والإسهام في رفع الحرج والمشقة عن الناس والاستجابة لدواعي الفطرة السليمة.
- ✓ أن للسياق قدرة على حل إشكالات كثيرة في الحديث على الفهم، والذي بدوره يضمن صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان كما أنه يسهم في تجديد الفقه فيما يتعلق بالمتغيرات لا الثوابت.
- ✓ أن دلالة السياق تحتم على المتتبع أن ينظر إلى الحديث نظرة شاملة تربط سابقه بلاحقه والعكس، كما أن الفهم الصحيح يتوقف على دراسته في سياقه المقالي (اللغوي: المتصل والمنفصل) والمقامي (سياق الحال) وذلك بالتوسل بكل الأدوات المعرفية والتاريخية المحيطة بنص الحديث الشريف.

## الهوامش:

- 1 - مقاييس اللغة، ابن فارس : 117/3 (مادة: سوق)، بتصرف.
- 2 - تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر الجوهري، (مادة: سوق).
- 3 - المعجم الوسيط، د. إبراهيم أنيس وآخرون، (مادة : سوق).
- 4 - معجم علم اللغة النظري، د. محمد علي الخولي، ص 57.
- 5 - البحر المحيط في أصول الفقه، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ج 8/ص 54.
- 6 - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ابن دقيق العيد، دار الجيل، ج 4/ص 82.
- 7 - بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية أبو عبد الله، ج 4/ص 815.
- 8 - أثر السياق في فهم النص القرآني: د. عبد الرحمن بودرع، ص 73.
- 9 - الوظيفة التوجيهية للسياق عند المفسرين: د. محمد إقبال عروة، ص 7.
- 10 - معجم علم اللغة النظري، د. محمد علي الخولي، ص 57.
- 11 - الكلمة دراسة لغوية معجمية، د. خليل حلمي، ص 161.
- 12 - البرهان في علوم القرآن، الإمام الزركشي، (ج 2/ص 200).
- 13 - اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص 365.
- 14 - سورة إبراهيم، الآية 24.
- 15 - سورة البقرة، الآية 272.
- 16 - سورة طه، الآية 77.
- 17 - سورة الزخرف، الآية 4.



- 18 - علم "مختلف الحديث" هو: "ورود حديثان متضادان في المعنى ظاهراً". راجع كتاب: مختلف الحديث بين المحدثين والأصوليين والفقهاء، د. أسامة خياط، ص: 26.
- 19 - علم الناسخ والمنسوخ: هو رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي من الكتاب والسنة بحيث يكون الدليل الثاني متأخراً عن الأول. راجع كتاب: صفوة الراسخ في علم المنسوخ والناسخ، للإمام أبي عبد الله شعبة، ص: 27.
- 20 - مقالات في اللغة والأدب، تمام حسان، (ج2/ص 65 . 66)، بتصرف.<sup>20</sup>
- 21 - مفتاح العلوم، السكاكي، ص: (167.168).
- 22 - البرهان في أصول الفقه، الإمام الجويني، (ص186.185/ج1).
- 23 - السنة النبوية الشريفة ومستويات التمام السياقي، مقارنة لسانية تداولية: د. إدريس مقبول، ضمن أبحاث السنة النبوية بين ضوابط الفهم السديد ومتطلبات التجديد: (ج1/ص351).
- 24 - مراعاة السياق وأثره في فهم السنة النبوية: د. فاروق حمادة، (مجلة الإحياء، عدد(26)/ ص: 70).
- 25 - كتاب تذكرة الحفاظ، الإمام شمس الدين الذهبي، (ج3/ص224).
- 26 - مراعاة السياق وأثره في فهم السنة النبوية: د. فاروق حمادة، (مجلة الإحياء، عدد(26)/ ص: 72).
- 27 - صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب الفرق، الحديث رقم: 5917.
- 28 - المصدر السابق، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، الحديث رقم: 3462.
- 29 - شرح صحيح البخاري لابن بطلال، (ج9/ص160).
- 30 - اللفظ النبوي التشريعي بين الرواية والدراية، أ.د. عبد الفتاح الزينيفي، ص: 69.
- 31 - اللفظ النبوي التشريعي بين الرواية والدراية، أ.د. عبد الفتاح الزينيفي، ص: 53.
- 32 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، حرف الواو، باب الواو مع الضاد، (ج5/ ص 195).
- 33 - استنادا إلى مؤلفات علماء شراح غريب الحديث نجد أن الوضح المقصود به هو البياض ومثلوا له ببياض الصبح والقمر وغيره، استنادا إلى سياق الأحاديث الدالة على هذا المعنى، (انظر كتاب غريب الحديث لابن الجوزي، ج2/ص 472، وانظر كتاب الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري، ج4/ص111، وانظر كتاب غريب الحديث للخطابي، ج2/ص103).
- 34 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، حرف الواو، باب الواو مع الضاد، (ج5/ ص 195).
- 35 - صحيح مسلم، رواية أبو موسى الأشعري، رقم الحديث: 2759.<sup>35</sup>
- 36 - صحيح البخاري، حديث أبو هريرة، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم الحديث: 2222، وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن، باب ما جاء في نزول عيسى بن مريم، رقم الحديث: 2233.
- 37 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، حرف الواو، باب الواو مع الضاد، (ج5/ص197)، بتصرف.
- 38 - موطأ الإمام مالك، رواية يحيى الليثي، كتاب الجامع، ما جاء في أكل الضب، ص559/ج2.
- 39 - كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ، محمد ابن عاشور، ص378.
- 40 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (ج5/ ص 228).
- 41 - سنن الترمذي، رقم الحديث: 3713، وانظر سنن ابن ماجه، رقم الحديث: 121.
- 42 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، (ج5/ص228).



- 43 - صحيح أبي داوود للألباني، رقم الحديث 2083.
- 44 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ، (ج5/ص229).
- 45 - سنن الترمذي، من حديث أبي هريرة، رقم الحديث : 3596.
- 46 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ، (ج5/ص242).
- 47 - الأدب المفرد للإمام البخاري، باب المستابان شيطانان يتهاثران ويتكاذبان، رقم الحديث : 427.
- 48 - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ، (ج5/ص243).
- 49 - صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من لم ير ردّ السلام على الإمام، رقم الحديث: 839، (ج1/ص252).
- 50 - فتح الباري، باب يسلم أي المأموم حين يسلم الإمام، (ج2/ص324).
- 51 - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، رقم الحديث 96، (ج1/ص97).
- 52 - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح، رقم الحديث: 1419، (ج1/ص436).
- 53 - فتح الباري، قوله باب فضل صدقة الشحيح، (ج3/ص285).
- 54 - صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة ذي قرد وغيرها، رقم الحديث: 1806، (ج3/ص1432).
- 55 - النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (ج3/ص7).
- 56 - صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب يمينا الإمام، رقم الحديث: 709، (ج1/ص492).
- 57 - سورة البقرة، آية 186.
- 58 - صحيح البخاري، كتاب العلم، باب القراءة والعرض على المحدث، رقم الحديث: 63، (ج1/ص28).
- 59 - فتح الباري، باب القراءة والعرض على المحدث، (ج1/ص151).
- 60 - مسند الإمام الأحمّد، مسند الشاميين، حديث رويغ بن ثابت الأنصاري، رقم الحديث: 16990، (ج28/ص199).
- 61 - الروض الأنف، للإمام السهيلي، ذكر المسير إلى خيبر، مانحى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر، (ج6/ص503).
- 62 - صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من غير حدث، رقم الحديث: 214، (ج1/ص74).
- 63 - عن حميد عن أنس : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ لكل صلاة طاهراً أو غير طاهرٍ...، سنن الترمذي، باب الوضوء لكل صلاة، رقم الحديث: 58، (ج1/ص113).
- 64 - فتح الباري، قوله باب الوضوء من غير حدث، (ج1/ص316).
- 65 - صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر على الحر المملوك، رقم الحديث: 1511، (ج1/ص467).
- 66 - نفس المصدر، باب صدقة الفطر على الصغير والكبير، رقم الحديث: 1512، (ج1/ص468).
- 67 - مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح، الشرنبلالي، ص 273.